**نبذة عن المصادر الأوروبية حول تاريخ الجزائر الحديث :**

**القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر**

د. أمين محرز

إنّ المصادر الأوروبية جدّ مفيدة لفهم بعض الأحداث التاريخية وجوانب من النظم الإدارية والعسكرية، ناهيك عن المواضيع المجترّة على الدوام مثل القرصنة ووضعية الأسرى والعلاقات مع الدول المسيحية ؛ وذلك رغم الأخطاء الّتي كثيرًا ما وقع فيها مؤلّفوها بحكم التعصّب الدينيّ، أو الجهل بلغة وتقاليد سكّان البلاد، أو الأحكام المسبقة المنافية للواقع كما نستشفه من قراءة كتاباتهم.

ومهما يكن، سنقوم في هذه المحاضرة بإطلالة عن أهمّ المصادر الّتي كتبت في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر قبل الاحتلال، والّتي تميّزت عن غيرها بغنى محتواها بالمعلومات التاريخية أو باعتمادها لمنهج أكثر موضوعية أو اشتهارها في أوساط الباحثين. ومن بين هذه المصادر، أثارت انتباهنا مؤلّفات استند بعضها على وثائق رسميّة وتقارير قنصليّة والّتي حوت معلومات قيّمة وموضوعيّة نسبيًّا بالمقارنة مع سابقاتها عن إيالة الجزائر، ونذكر منها على سبيل المثال مؤلّفات شاو (1720-1732)، ولوجييه دو تاسي (1725)، وفنتور دي بارادي (1789-1790)، وكاثكارت (1785-1796)، وشالر (1816-1824)، وبروتون (1806-1812)، وسيمون ﭘﻔﺎيفر (1825-1830).

امتازت هذه الفترة بظهور تيار فكري نادى برفض الذهنية الموروثة عن القرنين السادس عشر والسابع عشر، أي إعادة النظر في تقييم الغير و كتابة التاريخ دون ذاتية وترك الأفكار المسبقة والعصبية الدينية ؛ كما امتاز كتّاب هذه الفترة بمستواهم الفكري ومنظورهم الجادّ والجديد، فهم لم يعودوا أسرى أو آباء الفداء فقط بل أصبحوا عملاء، باحثين، مغامرين، وكان منهم الدبلوماسيين والعلماء، وكذا رحّالة وفدوا إلى الجزائر بمحض الإرادة.

ومن هؤلاء الكتّاب الذين تبنوا هذه الأفكار لوجييه دي تاسي الّذي انطلق من فلسفة إنسانية تساوي بين البشرية في كامل العالم. ويعتبر مؤلّفه (**Histoire du Royaume d’Alger avec l’État présent de son gouvernement, de ses forces de Terre et de Mer, de ses revenus, police, justice, politique et commerce**) محاولة لإعطاء نظرة جديدة عن الجزائر، وهو ما عبّر عنه كما يلي : "ستغمرني سعادة كبرى إذا استطاع كتابي أن يقدّم نفعًا للدول الأوروبية المتعاملة مع الجزائر، وإذا نجح في القضاء على الادّعاء غير العادل الناتج عن تعصّب مبالغ فيه ضدّ كلّ ما/من هو تركي". وعليه، قام هذا الدبلوماسي بإعطاء صورة منصفة عن الدولة الجزائرية في تلك الحقبة.

ومن أشهر الرحّالة خلال الفترة المذكورة، نذكر الكاهن ثوماس شاو الّذي كان كاهنا بالقنصلية الإنجليزية في الجزائر من عام 1720 إلى 1732، إذ استطاع شاو أن يقدم عملا بارزًا بعنوان "**رحلات في عدّة أقاليم ببلاد البربر والشرق**"، في جزئين تضمنا أوصافا دقيقة نوعًا ما وتفاصيل عن بلاد الجزائر، وخاصّة عن ريفها و منتجاتها وآداب سكّانها ؛ كما تضمّن النزر اليسير من المعلومات عن الحياة السياسية والإدارية.

ويعدّ الدكتور شاو من الدارسين والرحّالة الّذين حاولوا التحدّث عن الجانب الجغرافي والانساني للبلاد الجزائرية خلال النصف الأوّل من القرن المذكور، إذ رسم خريطة وضّح عليها معالم جغرافية وطبيعية، و ربطها بمعلومات مستقاة عن الجغرافيين القدامى، كما حدّد بها حدود إيالة الجزائر، وخاصّة حدود بايليك الشرق الجزائري.

وبتكليف من أكاديمية العلوم، زار ﭼﺎن أندري بيسونال الشرق الجزائري خلال عامي 1724 و 1725 ؛ وقدّم عملاً هامًّا عن الجزائر، تضمّن هو الآخر - على غرار مؤلّف شاو - معلومات جغرافية وطبيعية واجتماعية قيّمة.

أمّا بروس الّذي تولّى مهام قنصل لتمثيل بلده إنجلترا في الجزائر سنة 1768، فقد قدّم رواية في خمسة أجزاء تبدو قليلة الأهمية بالنسبة إلى تاريخ الجزائر العثمانية، ولكنّها تبقى مصدرًا هاما في خدمة هذا التاريخ.

ومن جانب آخر، لدينا فرنثيسكو خيمينيث (مولود عام 1685)، وهو من الآباء البيض الإسبان الثالوثيين الذي زار وهران بعد أن استرجعتها الإيالة أوّل مرّة من إسبانيا (استولت إسبانيا على وهران عام 1509، ثمّ استرجعتها السلطة العثمانية عام 1708 إلى غاية عام 1732 خلال عهد الباي مصطفى بوشلاغم ؛ لتعود مجدّدًا لإسبانيا عام 1732. وأخيرًا، استرجعها الباي محمد الكبير نهائيًا عام 1792). وقدّم المذكور ملاحظات هامّة عن الجزائر ووهران خلال رحلته إليهما الّتي دامت من عام 1717 إلى 1720، حيث دوّن أعماله في سبعة مجلّدات، خصّص ثلاثة منها لهذه الرحلة، والأربعة الأخرى خصّصها لتونس، كما عرض فيها معلومات نادرة عن ظروف الأسرى المسلمين في إسبانيا ؛ وقد تحادث مع الباي مصطفى بوشلاغم في هذا الموضوع. وسعى لبناء مستشفى في وهران، ولكن الباي رفض هذا الطلب. ولم يمنعه هذا الرفض من تقديم معلومات كثيرة، منها ما تعلّق برغبة هذا الباي في دفع بعض الأسرى إلى اعتناق الإسلام، بل أن الباي حاول أن يجعل أحدهم خزندارًا ؛ وهو الأمر الّذي تكرّر بعد ثلاث أرباع قرن مع الباي محمد الكبير حين أسند مهام وظيفة الخزندار إلى الأسير الفرنسي ثيدنا. وكانت أعمال خيمينيث من المصادر الهامّة الّتي وظّفها جان أندري بيسونال فيما قدّمه عن الجزائر من معلومات تاريخية.

وبالمقابل، فإنّ أعمال فنتور دي بارادي بالنسبة لتاريخ الجزائر العثمانية هي ذات قيمة عالية، وقد نشرت على حلقات في المجلة الإفريقية. لقد زار هذا الترجمان المستشرق الجزائر عام 1788 وإقامته الّتي دامت حوالي سنتين سمحت له بأن يقدّم عملاً بعنوان "ملاحظات حول الجزائر" (Notes sur Alger)، لكنّه بقي غير منشور طيلة قرن تقريبًا، حتّى تكفّل ادمون فانيان بنشره. تضمّن الكتاب الّذي صدر تحت عنوان "الجزائر في القرن الثامن عشر" معلومات قيّمة عن هذا البلد، من بينها ما يتعلق بالجزائر العاصمة الّتي قال عنها أن بها 16000 بستان وحديقة، وبها 5000 مسكن بما فيها 180 مسكن لليهود، وقدّر عدد سكّانها ما بين 25 إلى 30 ألف نسمة، وقال أنّ العدد قد يصل إلى 50 ألف ساكن بالنظر إلى عدد النساء الّلواتي لا يخرجن من البيوت (6000 كراغلة، و3000 تركي، و7000 يهودي و2000 أسير و32000 من العرب "المور"). وهذا العمل يعد من المصادر الأساس لدراسة تاريخ الفترة العثمانية في الجزائر.

ويوجد رحالة آخر عالم طبيعي متخصّص في النبات هو ديفونتين الّذي تجوّل في بلاد الجزائر ما بين عامي 1783 و 1784، حيث زار كلا من الجزائر و معسكر وتلمسان، وترك لنا رواية عن سفره إلى هذه المناطق، حيث سمحت له حماية الحكومة المحلية بإتمامها صحبة صانع ساعات من دوفينه الّذي خدم البايليك مدة عشرين سنة، وهو شخص أشار إليه ثيدنا السالف الذكر في مذكّراته.

ويعتبر عمل ديفونتين وثيقة هامّة لمعرفة أنواع النبات و الركائز في الغرب الجزائري، فهي ذات أهمّية خاصّة تنضاف إلى أدب الرحلات، ويمكن أن تقارن بما قدّمه ثيدنا في نفس الإطار.

ومن جهته، اهتمّ الألماني سيمون ﭘﻔﺎيفر (ولد سنة 1806) الّذي أسره رجال الإنكشارية في اليونان ونقلوه إلى أزمير ثمّ نقل إلى الجزائر برفقة عدد من العبيد عام 1825، على متن سفينة حربية جزائرية يقودها علج إنجليزي يسمّى عمر، وبعد 25 يوما استغرقتها الرحلة من أزمير إلى الجزائر وجد ﭘﻔﺎيفر نفسه في بيت الخزناجي الخاصّ، حيث اشتغل سنتين في مطبخه يتولّى مختلف الأعمال المنزلية، ثمّ أصبح طبيبه الخاصّ، فأتاح له هذا المركز الجديد أن يطلع على كلّ ما يجري في المدينة وما حواليها، وذلك بفضل علاقته المباشرة بعدد من الشخصيات من داخل القصر وخارجه ؛ ومن هنا جاء كتابه حافلاً بالوقائع والأحداث التاريخية، الّتي يتعذّر العثور عليها في مصدر آخر. لقد حاول الكثير ممّن أرّخوا للحملة الفرنسية أن يتحدّثوا عن أوضاع الجزائر الداخلية، ولكن ما كتبوه عنها لا يتعدّى إشارات عابرة، الّتي تبدو تافهة إذا قورنت بالصورة الّتي يقدّمها لنا ﭘﻔﺎيفر، وهذا بغضّ النظر عن خلوّها من النظرة الموضوعية في أغلب الأحيان. المهمّ دام أسره في الجزائر خمس سنوات، حتّى أعيدت له حريته أيّامًا قبيل سقوط الجزائر. واتّصل بعد ذلك بباي التيطري بومزراق، فعيّنه خزنداره مدة أسبوعين، قبل أن يقرّر التخلّي عن منصبه حين عزم الباي على محاربة الفرنسيين، فترك الجزائر يوم 16 سبتمبر 1830، وبعدها عاد إلى بلده ألمانيا، وكتب ونشر عام 1832 مذكّراته بعنوان "**رحلاتي وسنوات أسري الخمس في الجزائر**" (**Fuenfjaehrige gefangenschaft in Meine reisen und meine Algier**)، وفي 1833 أصدر ملحقًا له بعنوان "**وصف دولة الجزائر وسكّانها**" (**Beschreibung des staates Algiers Nebst den Bewohnern desselben**). وتمّت ترجمة الكتاب وملحقه إلى العربية من قبل أبو العيد دودو، بعنوان "**مذكّرات جزائرية عشية الاحتلال**" واضعًا في متناول الباحثين مصدرًا يعتبر من المصادر الهامّة في تاريخ الجزائر أواخر العهد العثماني بها، وبداية الاحتلال الفرنسي لها.

ونفس الشيء تقريبا حدث مع مواطنه الألماني فندلين شلوصر الّذي ارتحل إلى البرازيل للبحث عن عمل في المناجم لكنه عاد إلى ألمانيا ومنها توجّه إلى فرنسا ثمّ إلى الجزائر وانضمّ إلى فرقة عسكرية أجنبية تحت أوامر الجيش الفرنسي، وفي شهر أبريل سنة 1832 ألقى عليه أهالي جزائريون القبض بالقرب من الجزائر العاصمة وباعوه إلى الشيخ الثائر ابن زعموم ومنه سلّم إلى شيخ الطريقة القادرية بالأخضرية وهو علي بن عيسى، ثمّ نقل إلى بايلك الشرق وانتهى به المطاف أسيرًا في قصر الحاج أحمد باي حيث بقي مدة خمسة سنوات تولّى خلالها مناصب كثيرة كان آخرها العمل في المدفعية للدفاع عن المدينة ضدّ الفرنسيين الّذين هجموا عليها عامي 1836 و 1837. وقد ضمّن هذا الألماني مغامراته في كتاب قيّم ؛ وعلى غرار التأليف السابق، قام أبو العيد دودو بترجمته إلى العربية ليصدر بعنوان "**قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837**".

**المصادر و المراجع المعتمدة :**

- Arvieux, Chevalier L. L. d’. **Mémoires du chevalier d’Arvieux**, mis en ordre par le R.P. Jean-Baptiste Labat, T. 5, Delespine le fils, Paris, 1735.

- Broughton, Elizabeth. **Six ans de résidence à Alger, 1806-1812**, trad. de l’anglais par Alain Blondy, Éditions Bouchène, Paris, 2011.

- F. Alonso Cano y Nieto, **Argel delenda est. El « Nuevo aspecto de la topografía de la ciudad y regencia de Argel »**, Publ. de J. M. Escribano Páez & R. Castillo Larriba, Archivo de la Frontera, s.l., 2010.

- Cathcart, J. L. **The Captives**, compiled by his daughter, J. B. Newkirk, La Porte, 1899.

- Laugier de Tassy, J. Ph. **Histoire du Royaume d’Alger avec l’État présent de son gouvernement, de ses forces de Terre et de Mer, de ses revenus, police, justice, politique et commerce**, Henri du Sauzet, Amsterdam, 1725

- Peyssonnel et Desfontaines, **Voyages dans les régences de Tunis et d’Alger**, publ. Par M. Dureau de la Malle, T. 1, Librairie de Gide, Paris, 1838.

- Pfeiffer, S. F. **The voyages and five years’ captivity in Algiers, of doctor G. S. F. Pfeiffer**, Trad. I. Daniel Rupp, John Winebrenner, Harrisburg, 1836.

- Shaler, W. **Esquisse de l’État d’Alger considéré sous les rapports politique, historique et civile contenant un tableau statistique sur la géographie, la population, le gouvernement, les revenus, le commerce, l’agriculture, les arts, les manufactures, les tribus, les mœurs, les usages, le langage, les événements politiques et récens de ce pays**, trad. de l’anglais par M. X. Bianchi, Librairie Ladvocat, Paris, 1830.

- Shaw, Thomas. **Travels, or Observations relating to several parts of Barbary and the Levant**, 2nd ed., A. Millar & W. Sandey, London, 1757.

- Shaw, Th. **Voyage dans la régence d’Alger ou description géographique, physique, philologique, etc., de cet état**, trad. de l’anglais par J. Mac Carty, Marlin, Paris, 1830.

- Venture de Paradis, J.M. **Tunis et Alger au XVIIIe siècle**, présentation de J. Cuoq, Sindbad, Paris, 1985.

- Venture de Paradis, J.M. **Alger au XVIIIème siècle**, 2ème éd., Bouslama, Tunis, s.d.